

## رحلت أبا أيهم دون وداع على غير العادة فسلام عليك

أحمد جمعة الشامي

الأبحاث والتسجيل في مشروع جاديس لحوسبة المواقع الأثرية مع كوكبة من الزملاء الأوفياء وكأننا أسرة واحدة متألفة متحابّة. فمن أين أبدأ معك أبا أيهم؟.. من الميدان أم من المكتب أم من المكتبة.. أم من قبل ذلك كله ومن بعده.. فأشارك لا بل ذكرك باقية في كل مكان التقينا به وفي كل طريق سلكناه وعند كل باب طرقتاه ولا تفارقتني تلك الاحلام التي حلمنا بها معاً في منزلك أو في منزلي. وتمر الأيام وتطير بنا رحلة العمر إلى مشروع رأس النقب (العقبة) في العام ١٩٩٥ ونقضي اشهرًا جميلة مع نخبة رائعة من الزملاء لنغوص في عمق التاريخ، ننقب عن الآثار ونكشف عن حضارات هذا الوطن ما نكشف، ولكنك تحلم دوماً بالعمل بالمتاحف وتدور عينك صوب متحف المسكوكات في البنك المركزي فتحاول وتحاول. ما زلت أذكر عندما كنا نغادر السكن ليلاً من مكان اقامتنا في بلدة المريغة نجوب طرقات رأس النقب نتجاذب الحديث على ضوء القمر رغم ما لازمنا من عناء في الميدان وقهر الصحراء ووحشة المكان وغربته؟؟؟ تحدثني بفرح غامر وحلم كان يراودك وبأن الفرصة قد تأتي أخيراً.. لكن أبا أيهم حتى هذه لم تأتي.. وكأنها سراب.. لكنك تواصل المسير مفعماً بالأمل وتنتقل لمتحف الآثار الأردني في قلب عمان النابض بالحياة في جبل القلعة - عمان التي أحببتها وأحببتك - وتحدثني دائماً عن أسرة المتحف وتلك العلاقة الحميمة مع الشخوص والزمان والمكان وكأنها رواية خيالية. وتدور بنا الأيام وتأتي فرصة الجامعة الهاشمية إنه الحلم! ونتقدم معاً للمنافسة - كعادتك تهوى المنافسة - للترشح للإبتعاث وتفوز بها بجدارة، ونرسل الأوراق مرة تلو مرة وتضيع في ردهات تسجيل الجامعة، وتعاود الكرة مرة أخرى يا الله وكأنك لا تعرف لليأس طريق!!!!!! وتواصل المسير بخطى ثابتة كرسوخ الجبال، وترسووا بك الرحلة في أمريكا وفي جامعة سيراكوز بالتحديد ويتواصل بنا اللقاء تلو اللقاء ولكن عبر الهاتف لا أقول لدقائق بل لساعات تسأل عن الجميع كعادتك، رغم أنك تعاني في الغربة ما تعاني وأعلم علم اليقين حجم تلك المعاناة، وفي غمرة الأحداث وفي انهماكك العميق بالدراسة في قاعة المكتبة تصاب بغيبوبة..



هكذا هي الحياة تمر بنا مسرعة وكأنها برق خاطف للأبصار..... لم نهني بك بعد!!!! لكنك أسرعت الرحيل وكأنك على موعد لتقرير المصير، وأي مصير تختار يا أحمد؟؟؟  
ياالله منذ متى التقينا وبدأنا معاً رحلة طويلة وكأنها رحلة الوداع، وعلمي بك أنك تكره تلك اللحظة، وها قد جاءت بغير استئذان. نعم بدأنا معاً قديماً قدم تلك الرحلة الشاقة الممتعة العجيبة التي قضيناها بحلوها ومرها.  
كان ذلك في العام ١٩٨٦م، في الجامعة الأردنية التي عشقناها معاً فكانت محبوبتنا، فلکم تجاذبنا الحديث في ردهاتها وتحت ظلال أشجارها، وفي كلية الآداب قضينا أجمل لحظات العمر ولطالما حلمت بالمستقبل ولكن أي مستقبل كنت تحلم به!!!!!!  
هكذا أحببنا دراسة الآثار وتجولنا كثيراً كثيراً عبر محطات التاريخ والمواقع.. ويمر بنا قطار العمر ونودع الجامعة وتخرج منها. لكنك تصر على العودة، وتهمس في أذني سأكمل دراسة الماجستير فوراً وكأنك تقول: لا وقت لدي سامضي إلى هناك وكأنك لا تعلم إلى أين؟.. لله درك كم كنت متفوقاً جاداً! وتدور بنا الأيام ونلتقي مرة أخرى في عمق التاريخ وهوية الوطن وذاكرته- في دائرة الآثار- في العام ١٩٩٢م، لنبدأ رحلة العمل معاً في قسم

وتخبرني بها بعد انقضائها لكنك تواصل السير بخطى ثابتة وتعود لعمان حاملاً معك درجة أخرى في الماجستير بعلم المتاحف. ولأنك لا تعرف المستحيل تحول المسار هذه المرة صوب بريطانيا وإلى جامعة ليستر بالتحديد. وتعود مسرعاً من هناك بشهادة الدكتوراة في علم المتاحف فلسان حالك يقول لم يعد كثير من الوقت لإضاعته!!! وتبدأ حلما كان قد راودك وتصبح أستاذاً في الجامعة الهاشمية وتبدأ الحياة معك وحولك وبك بالإستقرار.

ها قد نلت ما سعت وأجتهدت وتمنيت!!!؟؟؟ وادخلت فرحاً لا حد له إلى قلب أمك التي تاقت لتلك اللحظة وكانت تنتظرها بشوق غامر.. وقد كانت تحدث جاراتها من نساء الحي عن عودتك تحمل بيدك شهادة الدكتوراة وتفتخر بأن ابنها أحمد سيعود دكتوراً قريباً، وبأنها ستقيم له حفلاً يتغنى به القاصي والداني.. ولكن هيهات هيهات أبا أيهم فأنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

لم تنفض عنك غبار السفر.. لم ترتح بعد.. لكنك أخذت ترسم دربك بريشة فنان بثقة وثبات واتزان، وكنا نظن أنك وضعت رحالك وأنخت رحلتك وأستقر بك الحال وبدأت بالإستقرار ففرحنا بك كثيراً فسلام عليك أينما حللت وأينما رحلت. وتبدأ رحلتك مع المرض ولسانك ذاكرة شاكرة الحمد لله وتعاني ما تعاني وتطول بك الرحلة في ردهات المشفى وأقسامه والأمل بالله كبير. يا الله كم كنت صابراً محتسباً لم أرك لحظة ساخطاً أو شاكياً وأشهد أنك كنت راضياً بقضاء الله وقدره ومستسلماً له، والعجيب تبدأ مشاراك الأكاديمي في هذه المرحلة الصعبة وتصارحني دائماً وتقول: يلازمني ألم في راسي لا ينفك عني وتساءل دوماً ما هو؟ وتصبر على إكمال العام الدراسي الأول في الجامعة متذرعاً ما ذنب الطلبة!!! وتقول سأكمل العام وانشغل بعلاجي بعدها. وتردد دوماً ما أصابني أمر سهل سيزول بأمر الله وساعود أحسن من ذي قبل بقدرة الله!؟

ماذا أصابك أبا أيهم.. ها قد طالجت رحلة العلاج طالجت معاناتك.. يا الله هجم المرض على المخزون.. أتى على الكنز ومر على الذاكرة وأصاب منها ما أصاب.. عدو غاشم هاجم ملف الذكريات الجميلة وما اجتهدت تكنزه منذ سنين وأنت صابراً تحاول جاهداً بكل ما أوتيت من عزم أن تسترجع شريط الذاكرة المليء بالمحطات والأحداث ولكن هيهات هيهات..

ألا ترى يا صديقي أننا لم نعد نلتقي كما كنا!!! ماذا أصابك يا احمد؟ أنسيتنا؟؟؟؟ ربما!!!! فقد طال الغياب فنحن نعتذر فلو أن الأمر بيدك ما غبت عنا وما تركتنا في شوق حارق متقد لرؤياك ولسماع صوتك، لا أظنك تبخل علينا بطلتك البهية وابتسامتك التي

تخفي وراءها حزناً كامناً وهموماً تسير بها أينما رست بك الرحلة. نم قرير العين أبا أيهم واسكن هنيئاً القلب فغرسك ثمرًا يانعاً بابنائك فأراك فيهم وبهم أراك فرعاً يمتد من الأصل، فيستمد الأيهم منك صورة تشبهك وتذكرنا بك دوماً.. والليث أراه بجريئتك وفطنتك شعلة متقدة.. والبتول كأجمل الفصول بإبتسامه تطول وتخط بخطك الجميل.. ها قد رحل أباي وغاب لكن في القلب سكنه فمن شابه أباه ما ظلم.. وتلك الأم المكومة التي ما اكتملت فرحتها بك.. أعلم أن أحلامك كانت كبيرة وأمانيك أكبر فداهمك الموت فجأة.. وتركت أمك وحيدة باكية وأنت وحيداً.. لم يعد لها أحد!!!! من سيطرق بابها من بعدك؟ عاشت لأجلك وأنت أملها وحلمها الجميل الذي غاب.. تراها تتفقدك في كل لحظة وأظنها تتفقد فراشك هل عدت للبيت لتنام؟؟؟؟ لا تزال منتظرة قدومك.. وأما والدك فلم يحتمل أن يراك سقيماً وظلت عيناه تذرف حزناً وكمداً حتى مرض.. وكلما توغل فيك الوهن توغل فيه المرض وأثر أن يودعك قبل أن تودعه فمات حزناً على ما أصابك..

وما بال الصابرة المحتسبة أم الأيهم تلك المكافحة التي رافقتك في أحلك لحظات العمر.. فحسبها أن يجازيها باريها خير ما صبرت وأحتسبت.. فعذراً أم الأيهم كنت وأحمد نسرق وقت الجميع نلتقي في كل الأحيان ونجتمع على غير موعد في كل مكان وزمان.. نعم كنا نبوح لبعضنا بالضجر والغضب الذي كنا نسببه لأسرتينا من حجم اللقاءات والإتصالات التي مضت وأنقضت وأظنها لن تعود.. وهذا العصام الشهم الهمام رعيته صغيراً أبا الأيهم.. تتلمذ على يديك وأكتسب منك الكثير.. وفي مرضك عمل من أجلك وسهر على راحتك ورد الجميل بالجميل وفاءً وإخلاصاً منقطع النظير.. أبا الأيهم إنني أراك فيهم قلباً نابضاً بالحياة وفجراً واعداً بغد أجمل.. فبغيبابك ما نسيناك ولا فارقنا ولا غاب عنا محياك.. فأنت معنا وبيننا، ففي مجالسنا نذكرك فمن هنا مررنا.. وهنا جلسنا.. وهناك سهرنا وعزأونا أننا نراك بألقهم ونجاحهم فسلام عليك وسلام لروحك - التي أحسبها ولا أزيها على الله - محلقة في سماء الجنان وأملتي بالله كبير أن تنعم وتنهأ في رحلة الدار الآخرة وترتاح.. فلقد تعبت كثيراً وتحملت كثيراً وعانيت وعانيت في رحلة الدنيا.. فأرجو ربي أن يكافئك أجرها وينير قلبك ودربك بالإيمان.. اللهم أغفر له وأرحمه وأسكنه فسيح الجنان وأجعل قبره روضة من رياض الجنة وأنزله وأفسح له فيه أمين أمين وامنحنا من بعد فراقه الصبر الجميل.

توأمك أخوك أحمد جمعة الشامي